

صيد الخاطر

340 - - فصل : يغوص البحر من طلب اللآكي .

ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم و العاشق ينبغي أن يصبر على المكاره .
و من ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب و مذ فقد التفقد لهم من الأمراء و من الإخوان
لازمهم الفقر ضرورة .

و الفضائل تنادي { هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا } .
فكلما خافت من ابتلاء قالت : .

(لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا) .

و لما آثر أحمد بن حنبل e طلب العلم و كان فقيرا أبقى أربعين سنة يتشاغل به و لا
يتزوج فينبغي للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد .

و من يطيق ما أطاق ؟ فقد رد من المال خمسين ألفا و كان يأكل الكامخ و يتأدم بالملح .
فما شاع له الذكر الجميل جزافا و لا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب .
فيا له ثناء ملاً الآفاق و جمالا زين الوجود و عزا نسخ كل ذل .

هذا في العاجل و ثواب الآجل لا يوصف .

و تلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف و لا تزار ترخصوا و تأولوا و خالطوا السلاطين فذهبت
بركة العلم و محى الجاه و وردوا عند الموت حياض الندم .

فيا لها حسرات لا تتلافى و خسارنا لا ينجبر و كانت صحبة اللذات طرفة عين و لازم الأسف
دائما .

فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب و يبقى
الأسى و قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : .

(يا نفس ما هو إلا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام) .

(يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... و خل عنها فإن العيش قدامي) .

ثم أيها العالم الفقير أيسرك ملك سلطان من السلاطين و أن ما تعلمه من العلم لا تعلمه ؟

كلا ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا .

ثم أنت إذا وقع لك مستحسن أو معنى عجيب تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية .

فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت و قد شاركهم في قوام العيش و لم يبق إلا الفضول
الذي إذا أخذ لم يكد يضر .

ثم هم على المخاطرة في باب الآخرة غالبا و أنت على السلامة في الأغلب .
فتلمح يا أخي عواقب الأحوال و اقمع الكسل المثبط عن الفضائل .
فإن كثير من العلماء الذين ماتوا مفرطين يتقلبون في حسرات و أسف .
رأى رجل شيخنا ابن الزغواني في المنام فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة و أكثر
ما عندنا الندامة .

فأهرب وفقك □ قبل الحبس و فسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش .
و اعلم أن الفضائل لا تنال بالهويناء و أن يسير التفريط يشين وجه المحاسن .
فالبدار البدار و نفس النفس يتردد و ملك الموت غائب ما قدم بعد و انهض بعزيمة عازم .
(إذا هم ألقى بين عينيه عزمة ... و نكب عن ذكر العاقب جانبا) .
(و لم يستشر في أمره غير نفسه ... و لم يرض إلا قائم السيف صاحباً) .
و ارفض في هذه العزيمة الدنيا و أربابها فبارك □ لأهل الدنيا في دنياهم فنحن الأغنياء
و هم الفقراء .

كما قال إبراهيم بن أدهم : [و لو علم الملوك و أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا
عليه بالسيوف] .

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراما أو شبهة .
و هو و إن لم يؤثر فوكيله يفعل و لا يبالي هو بقلة دين و كيله .
وإن عمروا دارا سخروا الفعلة و إن جمعوا مالا فمن وجوه لا تصلح ثم كل منهم خائف أن يقتل
أو يعزل أو يشتم فعيبهم نقص .

و نحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة و لا نخاف من عدو و لا ولايتنا تقبل العزل .
و العز في الدنيا لنا لا لهم و إقبال الخلق علينا و تقبيل أيدينا و تعظيمنا عندهم كثير

و في الآخرة بيننا و بينهم تفاوت إن شاء □ تعالى .
فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا .
و إن غلت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب و مرارة المن لا تفي بالمأخوذ و إنما هو
طعام دون طعام و لباس دون لباس و إنها أيام قلائل .

و العجب لمن شرقت نفسه حتى طلب العلم إذ لا يطلبه إلا ذو نفس شريفة كيف بذل لبذل من لا
عزة إلا بالدنانير و لا مفخرة له إلا بالمكنة و لقد أنشدني أبو يعلى العلوي :

(رب قوم في خلائقهم ... عرر قد صيروا غررا) .

(ستر المال القبيح لهم ... سترى - إن زال - ما ستر) .

أيقظنا □ من رقدة الغافلين و رزقنا فكر المتيقظين .

و وفقنا للعمل بمقتضى العلم و العقل إنه قريب مجيب